

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة في صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلب إليها ( الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كتب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثُلها لملك كان قبلك ، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حجَّ العرب ) .  
لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلط على أصحاب الفيل وباء مهلكاً ، رمتهم بجراثيمه طير أبايل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذلك بوباء الجدري ، فيما نقل « ابن هشام » في ( السيرة النبوية ) . وبقى البيت العتيق في أم القرى مثابة للناس وأماناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً . وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث في تفسير لوثني أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :  
« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فسخطها الله حجرين لاعتدائهما على حُرمة الكعبة » .

وفي ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .

ويقدم التاريخ تفسيراً دينياً لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومزنته في عقيدتهم وقلوبهم ، ففيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :

« أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا في البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة » .

ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا البيت لتقربهم إليه زلني : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

\* \* \*

وكان لمكة في الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النساء ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .